نظرة في حاضر الاسلام

بقلم الاب لامنس اليسوعي

١

مرت عدة سنوات على قرار اصدرته الحكومة التركية ، فقضت فيه ، بجرة قلم ، على مؤسسة عاشت قروناً طويلة ، الا وهي الخلافة الاسلامية . على ان هذا القضاء السريع لم يحدث شيئاً من العقبات التي كان يتوقعها الناس في داخل الاسلام وخارجه . وذلك ان هؤلاء كانوا على وهم من تأثير الخلافة في العالم الاسلامي ، اذ كانوا يشبهونها ، من بعض وجوهها ، بالبابوية في العالم المسيحي ، فتصبح ، والحالة هذه ، عظيمة الخطر ، تكاد تكون ضرورية لحياة الشعب الدينية . الا ان الواقع على عكس هذا الوهم فان الاسلام عاش مدات متفاوتة ، في حياته الطويلة ، دون خليفة ، كما انه عاش ايضاً مع وجود عدة خلفاء يُظهر كل منهم العداوة للآخر . وهكذا ، بعد ان مضى ست سنوات على القرار الكمالي القاضي على الخلافة في اذار سنة ١٩٢٤ ، نرى الاسلام يعيش ، وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا .

ولكن هذا لم يمنع من يهمهم الأمر ان يبحثوا في تأليف هيئة يتزلونها منزلة الخلافة ، فافتكروا بالمؤتمر الاسلامي الدولي الشامل ؛ وجربوا ذلك ، فعُقد مؤتمران في صيف سنة ١٩٢٦ ، الواحد في القاهرة ، والآخر في مكة . فلم يصلا الى نتيجة . الا ان مؤتمر مكة ، بعد ان تحقق استحالة تعيين خليفة جديد ، دون ادعاءاته ومطاليه للمستقبل ، ووضع الاساس لما يراه لازماً من تأليف اتحاد عام بين الشعوب الاسلامية . وعليه فلم يبقَ من هذين

المؤتمرين ، اللذين كثيراً ما تناقش فيهما الاعضاء ، سوى صدى المناظرات والمقترحات التي سرعان ما نسيها الجميع . وقد القى السيد بركات‌الله ، احد مسلمي الهنود المتصلين بشيوعيي الروس ، فكرة جديدة ترمي الى ايجاد لجنة دائمة تحلّ محل الخلافة . وهذه اللجنة تؤلف من اربعة اعضاء ، يهتم اولهم بالسهر على العقائد الدينية ، والثاني بجمع الزكاة ، والثالث بامور التربية ، والرابع باساليب الدفاع عن الدين ونشر الدعاية للاسلام . وبيّن ان صاحب هذا الاقتراح استمدّ مشروعه من المؤسسات البرلمانية ، ومن نظام الادارة في الكنائس المسيحية . كما انه يظهر من ذلك ان الاسلام يشعر بحاجته الى سلطة تديره ؛ وقد كانت الخلافة توهمه وجود هذه السلطة ، تقول : توهمه ، والبرهان انه لم يكن للخليفة ادنى صلاحية في ما خصّ العقائد ، حتى انه لم يكن له حق اصدار الفتوى المُعطى لأبسط « العلماء » .

وهنا يجدر بنا السؤال عن هذه المشاريع وهل يُعاد النظر فيها ، وهل يحقق شيء منها يوماً ما ؟ من الصعب ان نجيب جواباً مقنعاً . لأن الصعوبات جمّة تنشأ عن اسباب عديدة منها تعدّد الشيع التي تتقاسم الاسلام ، ويقظة الروح القومية وتباين مصالح الشعوب الاسلامية المختلفة .

ولو سلّمنا بان السنيّين يتفقون جميعهم على اقرار هيئة جديدة ، لكان هذا الامر سبباً كافياً لحمل سائر الشيع على الابتعاد عنه . على ان هذا التسليم صعب التحقيق لان بين السنيين انفسهم كثيراً من المحافظين التقليديين الذين لا يفيقون بسهولة من الحلم باعادة الخلافة القديمة . ومن ايّ الشعوب يكون الخليفة الجديد ؟ ايكون تركيًّا وقد جرى ما جرى في الخلافة العثمانية ؟ ام يكون عربيًّا ، والاتراك لا يقبلونه كما انهم لا يقبلون شيئاً يأتيهم عن طريق العرب ؟ وهذا نتيجة من نتائج اليقظة القومية التي اخذت توسّع الخروق وتعلي الحواجز بين المسلمين من الامم المختلفة ، حتى ان تلك الحركة القومية القديمة ، التي ظهرت في القرون الاولى للاسلام وعُرفت بالحركة الشعوبية ، لا تظهر اقوى مما نراه اليوم من النزعات القومية ، فضلاً عن انها لم تبقَ كما كانت عليه في صدر الاسلام من طلب المساواة بالعرب فحسب ، بل تجاوزته الى ابعد من

ذلك ، لان النفوذ العربي هبط هبوطاً عظيماً في العالم الاسلامي الحاضر . وكان السابق في هذه الطريق الشعوبية الشعب التركي ، فترك كل شيء حتى الديانة . ولم يكتفِ بان نسخ الابجدية العربية مستبدلاً بها اللاتينية ، حتى ادخل لغته الخاصة في الصلاة الجامعة ، وفي خطبة الجمعة ، واخذ ينفي من قاموسه كل المفردات العربية والفارسية الاصل . وقد سار الفرس على طريق الاتراك في هذه النهضة الوطنية التي تظهر عزيزة على قلب الشاه الحالي . ويجب ، في ذكر هذه الظواهر الشعوبية ، الّا ننسى المصريين الذين لا يدعون فرصة الّا ويباهون بمجد الفراعنة . وما الفراعنة في القرآن ، الّا مثال الكفر والظلم .[1] فاضحت الشعوب الاسلامية تجوز التاريخ الى ما قبل الاسلام لتتصل باجدادها حتى قبل الهجرة ، اذ لم يبقَ «للجاهلية» تلك الصفة الشائنة التي اقام منها العرب في صدر الإسلام فزّاعة تمنع المسلمين الجدد من الاتصال باجدادهم الاقدمين . من الحق ان هذه الحركة لا تزال في اولها ، الّا اننا لا ندري هل تتوقف بعد وقد سارت على هذا السبيل الذي اختطته تركية امام الجميع فاصبحوا على وشك السير عليه . اما مصر فان كل مآتيها منذ الحرب الكونية تدلّ على انها تتبع سياسة شعوبية ضيقة ، قليلة الاكتراث ، او عديمته ، لخير الاسلام العام .

ومن مظاهر هذه الحركة ان الشعوب الاسلامية بدأت ، منذ الحرب ، تحصي رجالها ، وتباهي بعددها ، مطالبة بتحقيق مصالحها القومية قبل كل شيء . ومن المفيد ، في هذا الباب ، ان نطّلع على العدد الحقيقي لامم الشعوب الاسلامية . فنتحقق اننا ، على مجموع ٢٤٠ او ٢٥٠ مليون مسلم (حسب احصاء سنة ١٩٢٩) ، لا نجد اكثر من ١٢ مليوناً من العرب الخالص . فاذا اضفنا اليهم الستة والعشرين مليوناً من الاسلام الذين يتكلمون العربية ، ويعدّهم اكثر الناس خطأً من العرب ، كان لنا ٣٨ مليوناً من المنعوتين بالعرب على غير حق ؛ ومهما يكن فهو عدد ضئيل بالنسبة الى سائر المسلمين . اما الاكثرية فيؤلفها الهنود وعددهم ٧٠ الى ٧٣ مليوناً ؛ ثم يأتي الخمسون مليوناً من الملايزيين ، وهم سكان المستعمرات الهولندية في اوقيانية كجزيرة جاوى

١) اطلب القرآن : سورة ٣٨ : ١١ ؛ و ٤٠ : ٢٨ ؛ و ٨٩ : ٦ وما بعدها

وسومطرة وغيرهما . وقد يبلغ الاتراك ٣٤ مليوناً منهم ١١ مليوناً فقط في تركية . وظاهرٌ ان اعظم هذه الكتل الكتلة الهندية ليس فقط بعددها ، بل بمدّاتها المالية ايضاً ، وبسيرها على طريقة منظّمة اقتبستها من المؤتمرات السنوية التي تعقدها . وهذه الطريقة المنظمة تفتقر اليها كل الافتقار الكتلة العربية كما انها تفتقر الى توحيد آرائها في سبيل الاخذ ببرنامج مشترك . اما هذه الوحدة الفكرية فلا يمكن الاتكال في تحقيقها على مصر المنصرفة كل الانصراف الى تعزيز استقلالها السياسي . وما كانت « مملكة نجد والحجاز وملحقاتهما » لتقوى على السير في مقدّمة هذه الحركة ، وان كره بعض المغرورين بابن سعود . فان مملكته فقيرة ، ولم تنسل ، حتى اليوم ، ثقة العرب انفسهم ، اذ انها لا تزال تقاوم العقبات الداخلية ، من ثورات القبائل الى معارضات العلماء الذين يعتبرون ابن سعود متطرّفاً في تقدّمه نحو المدنية ، فضلاً عن الفظائع التي ارتكبها الوهابيون مدفوعين بتعصبهم الذميم مما ترك اسوأ اثر في نفوس المسلمين اجمعين .

يؤلف الشيون الاكثرية الساحقة في الاسلام اذ يبلغ عددهم نحو ٢٢٠ مليوناً اي ٩١ ٪ من مجموع العالم الاسلامي . وقد يوهم هذا العدد العظيم بقوة حقيقية ، ووحدة متينة ثابتة ، مَن لا ينتبه الى انه ينطوي على عشرات الملايين من الاتراك العلمانيين العاملين في طول الاناضول وعرضه ، ومن المسلمين الشيوعيين المقيمين في الجمهوريات السوفيتية الروسية ، ومن « المصريين » المنتشرين في مصر والهند وغيرهما . ومن هؤلاء جميعاً كتل قوية يؤلفها ادباء متعلّمون يعملون عملاً هدّاماً يضعف قوى الاسلام القديم ويفرّق اجزاءه . فيكوّنون ما ندعوه «بحزب اليسار المتطرّف» في المجموع الاسلامي . وتجاهه نرى حزباً متطرّفاً من جهة اليمين يؤلفه الوهابيون ، وهم حنبليون على غاية ما يكون من التعصب ، يعتقدون ويدّعون بانهم وحدهم المسلمون الحقيقيون . وقد تدفع بهم الجرأة الى ان يُحلّوا انفسهم ، على قلة عددهم ، محلّ تابعي المذاهب الثلاثة جملةً : اي الحنفيين (١١٨ مليوناً) والشافعيين (٧٣ مليوناً) والمالكيين (٣٠ مليوناً) . اما عدد الحنبليين ، فلا يبلغ الثلاثة ملايين . . .

وفي الجانب الايمن من الاسلام ايضاً ، ولكن على بعد من الوهابيين

وتطرّفهم ، زى فئة المحافظين القدمـاء . وخلاص الاسلام ، في نظرهم ، يكون بالرجوع جملةً الى الاسلام التقليدي دون انتباه للتقـدّم العصري ، ولا اهتمام بالمدنية الحاضرة والاستفادة منها . وان من هؤلاء من يتأسف على السلطنة المطلقة في امور الدين والدنيا كما كانت في تركية القديمة ؛ ومنهم من يرجو الرجوع الى عهد خلافة تقليدية تذكّر الشعب بعهد الخلفاء الراشدين ، ذاك العهد الذي لا يزال البعض يتوهمون انه كان عصر الاسلام الذهبي . واقلهم مطالب يرضون بخلافة دستورية ، على شكل الخلافة التركيّة بعد ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ ، بل يرضون بخلافة اسمية خالية من كل سلطة سياسية ، كما كانت الخلافة العثمانية من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٤ . وفي اليمين ايضاً ، بل في الوسط الايمن من الاحزاب الاسلامية ، يجب ان نفرد مكاناً خاصّاً « للسَلَفيّة » الذين يدّعون المحافظة والاصلاح معاً . وانه من الصعب ان نعيّن في اية حـدود يمكنهم تطبيق هذين القسمين ، اللذين يتنافيان كما يتنافى الجمود والحركة . اما لسان حال هذا الحزب « المحافظ المصلح » فهو المجلة الشهرية « المنار » التي وقفت نفسها ايضاً على خدمـة ابن سعود ، ونشر الدعوة لسياسته .

ورب قائل يقول : أولا يمكن التوفيق بين هذه الاحزاب المختلفة ؟ فنجيب ان كل تجربة في هذا السبيل يعترضها ، فضلًا عن التباين في الافكار الدينية ، نموّ النزعات القومية الرامية من جهة الى توسيع النفوذ التركي ، ومن الجهـة الاخرى الى توسيع النفوذ العربي . هـذا اذا لم نتكلم عن معارضة الشيعيين الذين يبلغون نحو ٢٢ مليوناً . وافضل جواب نجيب به من يسأل عن امكان الاتفاق بين السنة والشيعة هو ان نطلعه على المناظرات الشديدة اللهجة الدائرة منذ سنين بين مجلة « المنار » ومجلة « العرفان » . فيرى ان الفريقين ابعد من ان يذكرا قرابتهما الدينية . . . وقد تألف في القاهرة حزب جديـد غايته العمل على التقريب بين قلوب المسلمين ، وهو حزب « الرابطـة الشرقية » ، ولكنه لم ينجح ؛ لان المتطرّفين يتهمونـه بالرجعية ، والمحافظين بالتطرّف والخروج . فكان من نصيب « الرابطة » انها اختبرت صحة القول : ان المتساهلين المصلحين يُرمَون بالخطأ في غالب الاحيان .

(للبحث صلة)